دراسة أثرية لموقع تل صوفان في ضوء نتائج الحفريات الأثرية

Tall Sufan/Nablus

An Archaeological Study

د. لؤي أبو السعود، قسم السياحة والآثار

جامعة النجاح الوطنية/نابلس، 2012

ملخص

يقع تل صوفان (تل صوفر) في الجهة الغربية من مدينة نابلس. وكان للموقع أهمية كبيرة منذ القدم بسبب توفر مصادر مياه الينابيع والأودية، مثل: عين الجسر، وعين بيت الماء، ووادي التفاح)، وتوفر التربة الخصبة الصالحة للزراعة. إذ سمح ذلك لسكان تلك المنطقة بالاستقرار فيها وممارسة الزراعة منذ فجر التاريخ. هذا بالإضافة إلى الموقع الاستراتيجي للتل، إذ يربط نابلس مع المدن في شمالها وجنوبها.

ومن الجدير ذكره أن بعثة ألمانية -يرأسها بوهل Böhl في عام -1931 أجرت مسحاً أثرياً للموقع دون إجراء أي نوع من الحفريات الأثرية. وفي الستينيات والسبعينيات من القرن المنصرم أجرى الأثري البريطاني روبرت بول Robert Bull مسحاً أثرياً آخر دون التدخل من أجل دراسة الموقع بطريقة منظمة عن طريق الحفريات الأثرية.

وفي التسعينيات من القرن المنصرم ومن أجل تطوير ودراسة التل واكتشافه قام قسم الآثار في جامعة النجاح الوطنية بالإعلان عن مشروع الحفر الأثري للموقع بتدريب طلاب تخصص آثار على تقنية الحفر الأثري. حيث أجريت أول حفرية أثرية في صيف عام 1998 واستمرت الحفريات في الموقع مرة في كل عامين متتالين حتى الوقت الحاضر.

إن أقدم استيطان بشري في التل يعود إلى العصر الحجري النحاسي(Chalcolithic Age (4500-3200 ق.م بناءً على اكتشاف كسر فخارية على سطح التل تعود لتلك الفترة. فقد استمر السكن والنشاط البشري في الموقع وما يحيط به Hinterland خلال الفترات التاريخية المختلفة حتى نهاية العصر العثماني.

وتوصلت الحفريات الأثرية إلى اكتشاف بئري ماء، وجرار فخارية كبيرة الحجم للتخزين، ومقابر، وأساسات مبانٍ، وسور يحيط بالتل، وكسر فخارية potsherds تعود لفترات تاريخية مختلفة.

ويعد غياب ذكر الموقع في المصادر التاريخية محيراً ومثيراً للجدل، رغم الحجم الكبير للتل الذي تبلغ مساحته (110×90م)، أي نحو عشرة دونمات.

وهنا لا بد من طرح العديد من الأسئلة عن أهمية الموقع خلال العصور التاريخية المختلفة ودوره في حركة التاريخ في مدينة نابلس. ومن الأسئلة التي يطرحها الباحث:

متى بدأ الاستيطان الفعلي في التل ومتى انتهى؟ وفي أي عصر كان في ذروته الحضارية؟ ولماذا حصل هجر الموقع؟ وكيف كان تخطيطه المعماري؟ وكم عدد سكانه؟ وما طبيعة العلاقات مع العالم الخارجي سواء على المستوى المحلي أم الدولي؟ وكيف نتعرف التركيبة الاجتماعية لسكان الموقع والنظام الاقتصادي الذي كان سائداً آنذاك، وإلى غير ذلك من الأسئلة التي ما يزال الباحث يحاول الإجابة عنها عن طريق الحفريات الأثرية.

وهنا لا بد من التنويه إلى أنه وبناءً على الحفريات الأثرية المستقبلية ونتائجها بالحصول على مكتشفات جديدة فإن هذه الدراسة قابلة للتطوير من حيث تحديث البيانات والفرضيات بناءً على المكتشفات الأثرية الجديدة، حيث سينجز المزيد من الحفريات الأثرية في المواسم القادمة التي سيجريها قسم السياحة والآثار لمعرفة تعاقب الطبقات الأثرية للموقع Archaeological stratigraphy من خلال المادة الأثرية المكتشفة عن طريق تحليل عينات (مواد عضوية، organic remains) في المختبرات المتخصصة بذلك باستخدام تقنية التأريخ بواسطة الكربون 14 Radiocarbon dating)).

وتتناول هذه الدراسة بإيجاز مشكلة الدراسة، وجغرافية الموقع، وتسميات التل، والتعريف به وتأريخه، والمسوحات والحفريات الأثرية السابقة ونتائجها، والنتائج والتوصيات، وقائمة بالمصادر والمراجع، وملحق الخرائط والأشكال.

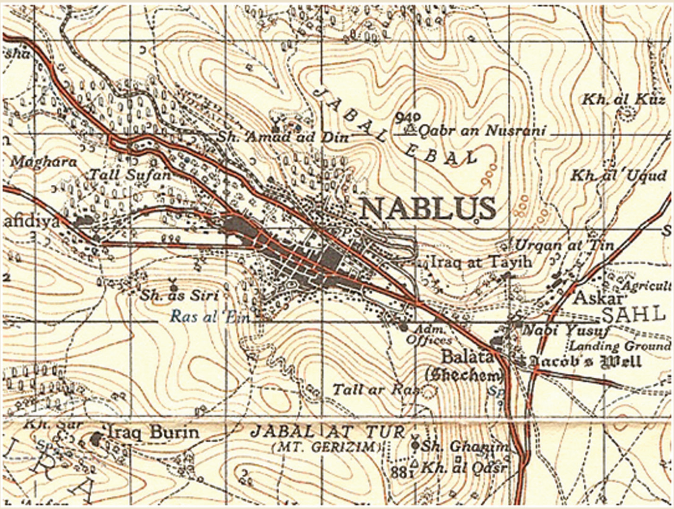
1. مشكلة الدراسة

في الوقت الذي تقوم الدول المتقدمة في المحافظة على تراثها الحضاري وترويجه سياحياً، يجد الباحث تل صوفان ضائعاً بين ركام الحضارات المنسية. على الرغم من الأهمية التاريخية والحضارية والأثرية التي يتمتع بها هذه الموقع. إلا أنه لم يجر تخصيص ميزانيات كبيرة لدراسته وإجراء حفريات أثرية للموقع إلا القليل سواء من قبل الجمعيات والبعثات الأثرية الأجنبية أو من قبل الجهات الرسمية الفلسطينية.

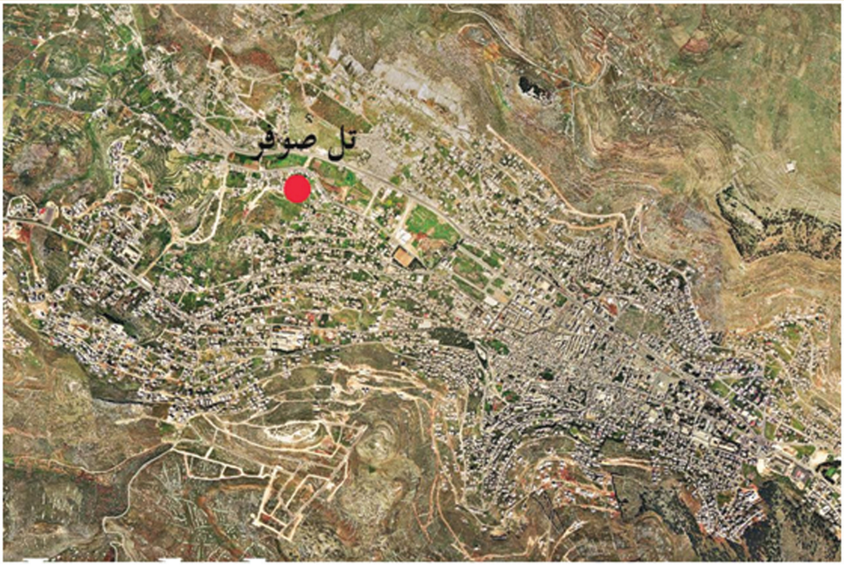
ومن جانب آخر، فان إجراء الحفريات الأثرية في الموقع لها أهميتها الكبيرة لتعرف تاريخ التل ودوره الحضاري في منطقة نابلس خلال العصور القديمة من جميع الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية.

2. جغرافية الموقع

يقع تل صوفان فلكياً على خط طول Longitude35.24167 شرقي خط غرينتش، وخط عرض خط عرض Latitude 32.22833 شمالي خط الاستواء، في الجهة الغربية من مدينة نابلس بالقرب من محكمة الصلح الجديدة وعلى بعد 1500متر غرباً من دوار الشهداء. على ارتفاع 530م فوق سطح البحر (انظر إلى الخريطة رقم 1 و 2). وفي الماضي البعيد والقريب كان يحيط بالتل العديد من العيون ومصادر المياه التي كانت تغذي التل بالمياه الصالحة للشرب وللاستخدام المنزلي وللزراعة، منها: عين الجسر، وعين بيت الماء، ووادي التفاح. بعضها مازال حتى الوقت الحاضر والآخر جف ولم يعد قائماً.



شكل رقم (1): خارطة طبوغرافية لمدينة نابلس وفيها يظهر موقع تل صوفان (مكتبة بلدية نابلس).



شكل رقم (2): صورة جوية لمدينة نابلس وما حولها والبقة الحمراء تمثل مكان التل على الخارطة الجوية لمدينة نابلس في الجهة الغربية منها (جمال جمعة، شركة أطلس).

3. تسميات التل

هناك خلاف حول تسمية التل بهذا الاسم، وهذا الخلاف يعود بأصله إلى تحريف الاسم عبر العصور، إذ أطلق عليه عدة تسميات يعرضها الباحث على النحو الآتي:

1. فهناك من يسميه تل صوفر، نسبة إلى صوفر النعماتي. وصوفر هو اسم لشخص، وفي التوراة ذكر اسم صوفر النعماتي أحد أولاد سيدنا أيوب الثلاثة. ويرجح أن تسميته بالنعماتي إنما كانت لكونه من نعمة. وهي إحدى مدن يهوذا (منطقة القدس). وهذا مستحيل، لأن أيوب سكن في حوران وكان ملكاً على أدوم في جنوب الأردن ولم يكن في القدس وما حولها. كما وتعني باللغة العربية والعبرية تسمية صوفر بهذا الاسم لصفير الهواء في منطقة التل صيفاً وشتاءً، بسبب الموقع الجغرافي الاستراتيجي للتل على المدخل الغربي بين جبل عيبال وجرزيم.
2. هناك أسطورة حيكت حول تسمية التل متداولة على ألسنة الناس في المجتمع النابلسي، مفادها أن التسمية نسبة إلى ملكة تدعى صوفر كانت تسكن في منطقة التل.
3. نسبة إلى اسم عائلة مشهورة ذات مكانة اجتماعية في المجتمع النابلسي وفي قرية قوصين وهي عائلة صوفان.
4. ويعني صوفان باللغة العربية التل الذي تنمو عليه نوع من البقوليات وهي الصوفانة، وهي بقلة زعباء قصيرة. ولذلك ربما سمي التل بهذا الاسم نسبة إلى نمو نبات الصوفان على جميع أرجاء التل، ومع مرور الزمن أطلق عليه هذا الاسم.

5. صوفيم: اسم عبري معناه "حرّاس" وهو حقل في رأس الفسجة (صحراء موآب، شرق الأردن) أتى بالاق ملك موآب ببلعام إليه لكي يرى هذا النبي المكان الذي حلّ به بني إسرائيل. وكان موضعه في طلة الصوفة في الوادي الذي يدخل بين النقطة الجنوبية الشرقية لرأس الفسجة وبين اللوحيث !! وهذا غير صحيح، فما علاقة أرض موآب بتل صوفان في نابلس.
6. يمكن أن تكون التسمية محرفة ومأخوذة من كلمة سوخار، اسم بلدة ورد ذكرها مرة واحدة في كتاب العهد الجديد (الإنجيل)عند زيارة عيسى عليه السلام لبئر يعقوب، فقد كان محتاراً في السامرة في طريقه من اليهودية إلى الجليل. وسوخار قرية غير مهدمة، ورد ذكر اسمها لأنها قريبة من بئر يعقوب. ويرجح أنها قرية عسكر على بعد نصف ميل شمالي بئر يعقوب. وهنا لا يمكن الربط بين كل من الموقعين المختلفين من ناحية تاريخية أولاً ومن ثم من ناحية الاسم فهو بعيد في لفظه ومعناه عن الصوفان أو صوفر!
7. أما نادراسكي Nadrasky (عام 1964) فأشار إلى أن التل ما هو إلا موقع عوفرة Ophrah (Fawn أي اللون الطحيني أو البيج) المذكور في التوراة بالقرب من مستوطنة عوفر في منطقة بين القدس ورام الله. وهذا الأمر مستحيل. فما علاقة عوفر بصوفر ! أو صوفان !.

4. تعريف بالتل وتاريخه.

شهد تل صوفان مراحل حضارية مختلفة ابتداءً من العصر الحجري النحاسي وحتى الفترات الإسلامية المختلفة.

وهو عبارة عن تل أثري، مستوى القمة، يتكون من عدد كبير من الطبقات الحضارية (الاستراتيجرافية) والتي تمثل مراحل حضارية مختلفة، تعود بدايتها منذ العصر الحجري النحاسي Chalcolithic (4500 ق.م-3200ق.م) وحتى العصور الإسلامية المختلفة. ومن الجدير بالذكر أنه هناك غياب ذكر للموقع في المصادر التاريخية.

وتبلغ مساحة التل حوالي 90 ×110م، أي حوالي 9 دونم و 900م^2 تقريباً. وهو يساوي سدس مساحة تل بلاطة (شكيم) البالغة حوالي 53 دونم تقريباً.

لقد أشار عالم الآثار بوهل F.M. The Liagre Böhl عام 19931 أنه في الجهة الشمالية والغربية من التل يوجد مسار السور الدفاعي الذي يحيط بالتل وبقاياه المعمارية على امتداد حوالي 40م (انظر شكل رقم 3 و 4). ويبدو أن هذا السور الدفاعي الذي تحدث عنه بوهل ما هو إلا عبارة عن سور مبني من الحجارة (بالعامية: سنلسة) قام ببنائها المزارعون من اجل منع انجراف التربة وليس سور دفاعي قديم يحيط بالتل كما اعتقد بوهل.

وفي الجهة الشرقية توجد بقايا قواعد وأساسات أبنية وأكوام حجارة بشكل مخروطي بقطر طوله حوالي 15م وعلامات مسار جدران أخرى في أماكن مختلفة في قمة التل.

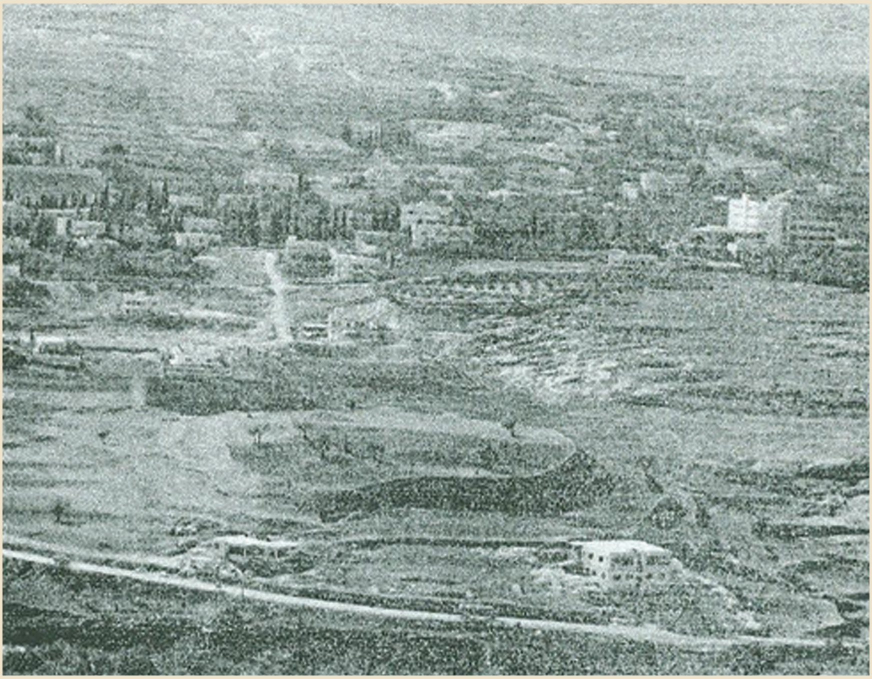
أما في الجهة الشمالية السفلى من التل فهي شديدة الانحدار ومدرجة، وفي الجهة الشرقية اكتشفت مجموعة من المقابر يبلغ عددها حوالي خمسة. ولا يعرف الباحث ما هي ميزات هذه المقابر التي يصفها بوهل في بداية الثلاثينيات من القرن العشرين.

كما وعثر على كهوف ومقابر أخرى في الجهة الجنوبية-الشرقية من التل. بالإضافة إلى آبار ماء (بعمق 2م) اكتشفت خلال الحفريات الأثرية التي قام بها قسم الآثار في جامعة النجاح الوطنية في عام 1998م.

5. المسوحات والحفريات الأثرية السابقة.

لقد تعرض التل للمسح الأثري وبعض مواسم الحفريات الأثرية منذ بداية الثلاثينيات في القرن العشرين وحتى الوقت الحاضر. إلا أن من الملاحظ من خلال هذه التقارير التي نشرت حول طبيعة التل والتي كان بسيطة وغير ممنهجة، وفي معظمها كانت قد أنجزت على عجل دون الوصول إلى نتائج علمية حاسمة من خلال الحفر الأثري.

وأولى هذه الدراسات الأثرية تعود إلى عام 1931م التي قام بها عالم الآثار بوهل F.M. The Liagre Böhl إذ ربط تاريخ التل بالنص التوراتي ويعتقد بأن الموقع ما هو إلا برج أقيم من أجل حماية تل بلاطة "مدينة شكيم".



شكل رقم (3): منظر عام لتل صوفان عام 1968 (المصدر: Robert Bull, 1968, p. 37)).



شكل رقم (4): منظر عام للتل من الجهة الشمالية الشرقية قبل أن يتم بناء المحكمة الجديدة (الباحث، 2007).

وفي الخمسينيات من القرن العشرين قام كل من بول R.J.Bull وكامبل E.F.Campell بإجراء مسح أثري للتل، حيث جمع عدد من المواد الأثرية والحضارية والقطع الفخارية التي تعود إلى العصور التالية: من العصر الحديدي (1200 ق.م) وحتى نهاية العصر البيزنطي وبداية الفتح العربي الإسلامي.

أما نادراسكي Nadrasky فأشار من خلال المسح الأثري الذي قام به عام 1964 إلى عدم وجود قطع فخارية عربية إسلامية في الموقع. وهذا التحليل الأثري الذي قام به المذكور آنفاً منحاز إلى الفرضيات التوراتية والتي تدعي بأن هذا التل بكل بساطة يرتبط بتاريخ اليهود دون غيرهم من سكان فلسطين الأصليين.

فهناك الكثير من الإدعاءات والتفسيرات والنظريات التوراتية على الكثير من المواقع الأثرية الفلسطينية، التي لم تلقى تلك النظريات التوراتية أصداء واسعة، فقد ظهر عدد من علماء الآثار الذين يرفضون فكرة ربط النص التوراتي بالمواقع الأثرية في فلسطين، وذلك لعدم صلاحية التوراة في كثير من الأمور وبخاصة في تأريخ الأحداث التاريخية، فهو مقتضب وموجز، ومعلوماته غامضة في بعض الأحيان ومتناقضة في أحياناً أخرى.

ومن جانب آخر تحدث نادراسكي في نفس الصفحات عن تأريخ الموقع، وأرّخه إلى العصر البرونزي المبكر Early Bronze Age (3200-2200 ق.م) والعصر البرونزي الوسيط Middle Bronze Age (2200 ق.م-1567 ق.م) وذلك من خلال دراسته لنماذج بعض القطع الفخارية التي حصل عليها من سطح التل. وفي السنوات بين (1976-1971م) قامت دائرة الآثار في مدينة نابلس بإجراء بعض الحفريات الأثرية تمخضت عن اكتشاف أرضية فسيفسائية بالقرب من الموقع. إلا أنه لم تسجل أية تقارير أثرية تذكر.

وأخيرً، أجرى قسم الآثار في جامعة النجاح الوطنية أولى حفرياته الأثرية في عام 1998م بتمويل ذاتي من جامعة النجاح من أجل تدريب طلاب تخصص آثار على عمليات الحفر الأثري. إذ استمرت حتى الوقت الحاضر.

6. نتائج المسوحات والحفريات الأثرية.

بالرغم من قلة الحفريات الأثرية التي أجريت في الموقع، والتي كانت في معظمها تدريبية، بمعنى أن قسم الآثار في جامعة النجاح الوطنية كان يدرب الطلاب على تقنيات الحفر الأثري (انظر شكل رقم 6).

وعلى ضوء الوضع الإقتصادي الذي تشهده وزارة السياحة والآثار آنذاك فقد اشترطت الوزارة على مدير ومشرف الحفريات الأثرية في قسم الآثار في جامعة النجاح الوطنية على ردم المربعات التي يتم فتحها من أجل تدريب الطلاب، وذلك بسبب عدم توفر الأموال اللازمة من أجل ترميم المباني والمكتشات المعمارية في الموقع.

هذه الإجراءات أسهمت بشكل كبير في إعاقة البحث العلمي ودراسة الموجودات والمكتشفات المعمارية في التل. كما أن من أهم المشاكل التي يواجهها البحث هو عدم قيام الأثريين الذين حفروا في التل بكتابة تقارير تفصيلية عن الحفريات الأثرية وتوثيقها بطرق علمية حديثة، هذا بالإضافة إلى عدم وجود رسومات لتعاقب الطبقات الأثرية الاستراتيجرافية وعدم توفر دراسة للنماذج والقطع الفخارية ذات الكم الهائل التي اكتشفت في الموقع وذلك من أجل تعرف التعاقب الطبقي والتسلسل التاريخي للموقع، وهذا بدوره أيضاً أدى إلى الصعوبة في إعطاء صورة واضحة عن تاريخ الموقع.

أما فيما يخص مجمل نتائج الحفريات الأثرية التي أجريت على التل فيمكن القول بأنها أسفرت عن اكتشاف بئرين ماء، وبقايا أبنية، كما كشف النقاب عن أربع جرار فخارية كبيرة الحجم (ارتفاع 1.30م) (انظر شكل رقم 5). وكم هائل من القطع الفخارية. إذ تعود كل هذه المكتشفات- حسب ما يعتقد جلال قزوح- لمدينة كنعانية جرى اكتشافها على أيدي طلاب وأساتذة قسم الأثار في العام 1998. إلا أنه من أجل دعم هذه الفكرة لا بد من الحصول على المزيد من المكتشفات والدلائل الأثرية لإثبات ذلك علماً بأن سكان التل بدون أدنى شك من الكنعانيين.



شكل رقم (5): جرة فخارية كبيرة الحجم كانت تستخدم لخزن بذور النباتات والمنتجات الزراعية، اكتشفت في تل صوفان عام 1999م، وتؤرخ هذه الجرة حسب رأي الأستاذ عاطف خويره إلى العصر البرونزي المتأخر (1550 ق.م1200- ق.م) (المصدر: الباحث).



شكل رقم (6): جانب من الحفريات الأثرية التي أجراها قسم الآثار في السنوات الماضية. (موقع جامعة النجاح الوطنية، www.najah.edu)

7. النتائج

وجملة القول، إن تل صوفان كان قرية زراعية ذات حجم كبير، مارس سكانها الزراعة وذلك بسبب توفر مصادر المياه (عين الجسر، وعين بيت الماء، ووادي التفاح، وادي الجناين)، وكان سكان التل منتجين، ذو دخل إقتصاد قوي، ويمكن استنتاج ذلك من خلال الجرار الفخارية الكبيرة الحجم التي أكتشفت خلال الحفريات الأثرية التي قام بها قسم الآثار في جامعة النجاح الوطنية في عام 1999م والتي كانت تستخدم لخزن المنتجات الزراعية الفائضة والتي كانت تزيد عن حاجة السكان المحليين. كما ويمكن الحديث عن وجود نوع من التبادل التجاري بين تل صوفان مع المدن الكنعانية في فلسطين والعالم الخارجي.

أما مساحة التل فكانت تساوي تقريبا 9.9 دونم، فمن الممكن أن تكون المساحة المستخدمة بطبيعة الحال أكبر من ذلك بكثير، إلا أن هذه المساحة تمثل نواة التل ومركزه، أي أنها تمثل مركز وبؤرة القرية الزراعية. هذا إذا قورنت مع تل بلاطة (شكيم) الذي يبلغ حجمه بحوالي 53 دونم كما ذكر آنفاً.

ويستنتج الباحث مما سبق أنه في الوقت الذي كانت تشهد مدينة شكيم الانحطاط والتدهور ووجود فجوة حضارة والذي جرى تأكيده من خلال الحفريات الأثرية في الموقع في عدة فترات زمنية (1900-3300 ق.م) و (1450-1540 ق.م) و (975-1150/1125 ق.م) كان موقع تل الصوفان يشهد ازدهاراً سكانياً حيث هاجر سكان شكيم إلى القرى المجاورة ومنها إلى هذا التل حيث مارسوا اقتصاد زراعي كبير نتج عنه فائض في المنتجات الزراعية وبالتالي وجود علاقات تجارية مع المواقع والممالك المجاورة.

إن عدم ذكر التل في المصادر التاريخية القديمة قد يكون بسبب صغره وعدم لعبه دوراً مهماً في تاريخ منطقة نابلس ككل، وذلك بسبب الدور الكبير الذي كانت تقوم به مدينة شكيم ونيابولس الرومانية Neapolis في الجهة الشرقية والمدخل الشرقي للمدينة عبر العصور التاريخية المختلفة.

8. التوصيات

المطالبة بإعادة القطع الأثرية التي اكتشفت في التل وذلك من أجل دراسة الموقع بشكل جيد، إذ لا بد من دراسة المواد الأثرية المكتشفة وتحليلها وتحليل التقارير المرفقة في السنوات الماضية والتي وضعت في متحف روكفلر ومخازنه.

وأخيراً، تجهيز مشروع للحفر الأثري وهذا يتطلب دعماً مالياً غير متوفرة لدينا في الوقت الحالي. وهدف هذا المشروع المقترح تعرف التل بمراحله التاريخية وترميمه وتأهيله من أجل فتحه أمام السياح الذين يدفعون مبالغ كبيرة من العملة الصعبة المهمة في تعزيز الاقتصاد الفلسطيني. إذ يوصي الباحث بوضع خطة مستقبلية من أجل تأهيله بحيث يكون الحديقة الأثرية الغربية لمدينة نابلس وذلك بعد الانتهاء من تجهيز الحديقة الأثرية الشرقية من المدينة لتل بلاطة "شكيم".

9. المصادر والمراجع.

إبراهيم مطر؛ بطرس عبد الملك؛ جون ألكساندر طمسن، قاموس الكتاب المقدس، دار مكتبة العائلة، بيروت، 2000.

عراف، شكري، 2004، المواقع الجغرافية في فلسطين: الأسماء العربية والتسميات العبرية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية. الطبعة الأولى-بيروت.

الفني، إبراهيم، أوراق مكتوبة بخط اليد، بدون تاريخ.

إبراهيم، معاوية، إبراهيم، "فلسطين من أقدم العصور إلى القرن الرابع قبل الميلاد"، الصفحات: 138-1. الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، 1990.

باللغة الإنجليزية

- Nadrasky, I.K., "Tell Sofer ", Annual of the Department of Antiquities of Jordan, VIII-IX, 1964, Pp. 89-90.
- F.M. DE L. Böl, Palästina in het licht der jongste opgravingen en orderzoekingen, pp. 65-67.
- Horn, S.H., Jaarbericht "Ex Oriente Lux", XVIII, 1965, pp. 287, n. 3, and 306 postscript.
- Bull, R. J; Campbell, F.Jr, "The Sixth Campaign at Balatah (Shechem(", Bulletin of the American Schools of Oriental Research (BASOR), n. 190, April, 1968. pp. 19-41.
- Yeivin, Z., "Tel Sophar", Hadashot Arkheologiyot, nº47.Pp: 12-13 (Hebrew).

باللغة الاسبانية:

Abusood, Loai., Estudio arqueologico del urbanismo y arquitectura antiguos de la ciudad de neapolis, Universidad de Salamanca, Espana, 2006, (tesis doctoral). (Tell Sofer). Pp: 92-94.

المواقع الالكترونية:

Archaeological Database Project Page:

- http://www.tau.ac.il/humanities/abraham/archaeological-database.html
- http://Wikimapia.org
- http://www.ccel.org/ccel/schaff/npnf201.toc.html